د: الطيب بوسعد جامعة لونيسي علي البليدة -2-

## متيجة من خلال المصادر الجغرافية الإسلامية في العصور الوسطى

**مقدمة**

تناول البحث محل الدراسة إقليم متيجة في العصور الوسطى الإسلامية، من النواحي الجغرافية (الطبيعية) و الاقتصادية و البشرية و العمرانية (المدن و الحواضر)، التي وردت معلوماتها في المصادر الجغرافية و كتب الرحلات، فضلا عن بعض اللمسات التاريخية.

و يبلغ طول سهل متيجة من الشرق إلى الغرب مسافة 100 كلم، و تحديدا من بودواو إلى الشلف و يمتد عمقه من الشمال إلى الجنوب على مسافة 15 كلم تقريبا، تتخلله الأراضي الخصبة و المجاري المائية السائحة و تسوده زراعة الحبوب و الأشجار المثمرة و كذا تربية الحيوانات على اختلاف أنواعها من أبقار و أغنام بما فيها النحل.

و أهم حواضرها جزائر بني مزغنة و البليدة (خزرونة) و مليانة و الشلف، و تتمثل ساكنتها في بربر صنهاجة و العرب الثعالبة الذي استقروا بها في أواخر القرن 7هـ/13م (أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، صفحات 163-179-199-206-209، مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر و دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996، ج2، ص 215-370).

و لعل أدق وصف لإقليم متيجة، أنه فحص كبير، كثير الخصب والقرى والعمائر، تشقه الأنهار، و قد أحدقت به الجبال مثل الإكليل (إسماعيل العربي: المدن المغربية، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص321).

**1-دور العرب و المسلمين في علم الجغرافيا**

عرف المسلمون علم الجغرافيا، و أدركوا أهميته بين العلوم، نظرا لحاجتهم إليه في الرحلات سواء لغرض العبادة (الحج) أو طلب العلم، أو القيام بالتجارة، و كانت الدولة الإسلامية بحاجة ماسة إليه في الزراعة و التجارة و البريد من خلال معرفة المسالك و الممالك، و في هذا يبين المقدسي فضل علم الجغرافيا بقوله: "إن الجغرافيا علم لابد منه للتاجر و المسافر، والملوك و الكبراء و القضاة و الفقهاء"[1]

و استدعت حركة الفتوحات الإسلامية في مختلف الأقاليم و الأمصار، خارج نطاق الجزيرة العربية، معرفة علم الجغرافيا و تحديدا الإلمام بالمسالك و الممالك، أي الطرق و الدول و الاحتكاك بالشعوب، لذا استلزم الأمر الاطلاع على عناصر السكان و خصائصهم و نشاطاتهم في البلدان المفتوحة.

و ساعدت عوامل كثيرة على كثافة الرحلات داخل الدولة الإسلامية، تأتي في صدارتها سيادة الاستقرار السياسي في أقاليمها و قيام المؤسسات، التي ينزل فيها التجار و المسافرون كالوكالات و الفنادق، و كذا بناء الرباطات لحراسة الثغور و تشييد المنارات المرتفعة على الموانئ و الحدود البرية و عبر المدن و الواحات يهتدي بها المسافرون في البر و البحر[2].

و بدأ المسلمون في ق3هـ/9م يؤلفون في تقويم البلدان، و يصفون أجزاء دولتهم و ما يجاورها من الأقاليم و امتاز الجغرافيون في ق4هـ/10م بأن معظمهم كانوا رحالة، جمعوا كثيرا مما كتبوه بواسطة الأسفار و المشاهدة والاختيار[3].

و حسب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، فقد ظهر أدب الرحلات عند المسلمين حوالي منتصف القرن 3هـ/9م، على يد تاجر يدعى سليمان البحار، الذي قطع المسطحات المائية (البحار و المحيطات) للوصول إلى الهند و الصين، و دوّن مشاهداته للبلدان التي زارها[4].

و يظهر جليا أن المسلمين الذين اهتموا بالأدب الجغرافي و قاموا بالرحلات، ينتسبون إلى فئات مختلفة، يتصدرهم علماء الجغرافية المختصون، و يليهم العلماء و الحجاج، و كذلك التجار و رغم اختلاف تخصصاتهم، إلا أنّهم يتفقون على تدوين أخبار رحلاتهم و اعتمادهم على الاستقصاء و الاستفادة من المصادر الجغرافية و التاريخية و الاهتمام برسم الخرائط[5].

**2-التعريف بالمصادر الجغرافية الإسلامية في العصور الوسطى ووصفها لإقليم متيجة**

قبل التعرض للتوصيف الجغرافي، الذي روته كتب الرحلات الإسلامية عن متيجة و مدنها و أحوازها، يجدر بنا التعريف بمؤلفيها من الجغرافيين والرحالة المسلمين، الذين يعزى إليهم الفضل في توثيق أخبارها الهامة.

**-وصف اليعقوبي -تعريفه و وصفه لمتيجة-**

و من أقدم الرحالة العرب الذين زودونا بالمعلومات عن بلاد المغرب الأوسط في العصور الإسلامية الوسطى، و تحديدا إقليم متيجة، هو الجغرافي و الرحالة المؤرخ المعروف باليعقوبي (ت284هـ/897م)، و كان أول جغرافي عربي وصف الممالك معتمدا على ملاحظاته الخاصة بالإضافة إلى مصادر أخرى، بعد أن قام برحلات طويلة في أرمينية و خرسان و الهند و مصر و بلاد المغرب، و اعتمد في هذه الرحلات على تجاربه المتراكمة وخبرته في علم التاريخ و الجغرافيا، حيث ذكر في مقدمته "كتاب البلدان" قوله: "إني عنيت في عنفوان شبابي، و عند احتيال سني وحدة ذهني، بعلم أخبار البلدان والمسافة ما بين كل بلد و بلد، لأني سافرت حديث السن و اتصلت أسفاري ودام تغربي..."[6].

و توخى اليعقوبي الدقة في الوصف، موظفا مشاهداته، و مسائلاته للأشخاص، بعد معرفة وطنهم و ساكنيه من هم عرب أم عجم، و لباسهم وديانتهم، مستقصيا عن فتح البلدان و مبلغ خراجها، و اعتنى بجمع مادته الجغرافية من المصادر الموثوقة من سكان الأمصار[7].

و قد زار اليعقوبي بلاد المغرب الإسلامي في غضون سنة (263هـ/876م)، مستقرا في حظيرة الدولة الأغلبية و عاصمتها الثانية رقادة، و امتدت رحلته إلى المغرب الأوسط واصفا إقليم متيجة ومدنها في عهد الدولة الرستمية[8].

و بين زيارته لبلاد المغرب و تأليفه لكتاب البلدان 13 سنة، أي أنه ألفه في حدود سنة (276هـ/889م)، مما يجعلنا نحكم على المعلومات التي أوردها اليعقوبي بأنها صحيحة[9]، و القارئ لكتاب البلدان يدرك بأنه مصدر هام وأساسي لعمال الدولة الإسلامية المعينين في مختلف أقاليمها، و لغيرهم من التجار و الرحالة الذين يعقدون النية لزيارة البلاد التي يقصدونها و هذا دليل على أهمية الأوصاف و الأخبار التي أوردها كخلاصة لمعاينته و مصادره الأخرى[10].

**-ابن الفقيه الهمذاني**

و من الرحالة المسلمين في القرن 3هـ/9م نذكر: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه (ت290هـ/902م)، و رغم أنه تحدث في كتابه، مختصر البلدان عن حواضر و أقاليم المغربين الأدنى و الأقصى، فلم يصف لنا متيجة و مدنها، فقد تجاهل ذكر جزائر بني مزغنة[11] و حتى بقية مناطق المغرب، فقد أغفل سرد معلوماتها المفصلة عن السكان و الثروات الطبيعية كما غض الطرف عن ذكر أسواقها و مساجدها و حصونها، فقد اكتفى بالتحديد الجغرافي للمدن بشكل سطحي[12].

**-ابن خرداذبة**

و لا يختلف عنه كثيرا الرحالة و الجغرافي أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف باين خرداذبة (ت300هـ/912م)، الذي جاءت معلوماته عن بلاد المغرب عموما ضحلة و عامة، في كتابه الموسوم بـ: "المسالك و الممالك"، و لا نعرف متى بالضبط قد تمت زيارته إلى بلاد المغرب، على غرار سالفه ابن الفقيه الهمذاني، حتى أننا نميل إلى الاعتقاد بأنهما لم يزورا المنطقة، يدل على ذلك معلوماتهما الشحيحة التي كانت دراسة جغرافية بحتة، اعتمادا

على المصادر التي سبقتهما، فقد استعمل ابن خرداذبة القياسات لتحديد المسافات بين المدن كالميل و الفرسخ، و على عكس اليعقوبي، فقد أهمل ابن خرداذبة ذكر العناصر السكانية و المؤسسات العمرانية و الدينية كالقصور والمساجد، و لم يتحدث عن النشاطات الاقتصادية كالزراعة و الثروات المعدنية و الصنائع ناهيك عن إغفاله للتعريف بالمصادر المائية و الأراضي الزراعية، و مع أنه ذكر أسماء المدن في مسالكه، إلا أنها جاءت خالية من أي معلومات، و يبدو أن مهمته الرئيسية في كتابه قد انصبت على تحديد المسافات و الأبعاد الإدارية للمدن و الدول و ليس الوصف الدقيق لها طبيعيا و بشريا و اقتصاديا[13].

فقد أسقط من وصفه إقليم متيجة و مدنها الرئيسية و على رأسها مدينة جزائر بني مزغنة، في حين أشار مثلا إلى التوزيع الجغرافي للسكان البربر في سائر بلاد المغرب و تحديدا إفريقية، و اختتم دراسته الوصفية بالإشارة إلى المبادلات التجارية المغربية، فذكر عن صادراته بأنها جلود الخزّ و الوبر والطيب و المرجان، فيما تتشكل وارداته من الخدم الصقالبة و الجواري الروميات و الأندلسيات[14].

و من خلال المصادر الجغرافية الإسلامية التي ألفت في ق 3هـ/9م، يتضح جليا أن توصيفها جاء مقتضبا لإقليم متيجة و مدنها الرئيسية و بخاصة جزائر بني مزغنة، التي كانت تحتل مرتبة ثانوية في ترتيب مدن بلدان المغرب العربي، و لم يتعرض لها الجغرافيون و المؤرخون في مطلع الفتح الإسلامي، مما يدل على ضعف دورها في مدن السهل المتيجي في تلك الفترة التاريخية المبكرة، إذ وقع التركيز في الوصف من قبل الجغرافيين كاليعقوبي على المدن الداخلية، تماشيا مع استراتيجية الفتح الإسلامي التي كانت تتخذ من المناطق الداخلية قاعدة لبناء المدن و الحواضر على غرار مدينة القيروان، و يرجع ذلك إلى ضعف القوة البحرية الإسلامية و بالتالي عجزها عن توفير الأمن والحماية للمدن الساحلية من الغارات العسكرية البيزنطية المحتملة، لذلك

ثبت عن القائد الفاتح عقبة بن نافع منعه للاستقرار الإسلامي في المدن الساحلية[15]، لهذا السبب و غيره لم ينل إقليم متيجة و لا مدينة الجزائر ما تستحق من أهمية، بل سقط ذكرها بالمرة لدى بعض الرحالة، و ذلك لضمور خبرها كما أسلفنا الذكر إلا بعد أن تقوى الأسطول البحري الإسلامي، فخرجت من مرحلة الانغمار و الضمور.

و لكن الملاحظ أن إقليم متيجة و مدنه، أخذت تسترجع مكانتها و تفرض دورها العمراني في عهد الدولة الصنهاجية، التي و إن كانت لم تجعل منها عاصمة للبلاد، إلا أنها أعادت تجديد بنائها على يد بلكين بن زيري بن مناد (سنة 339هـ/960م)، الذي شيد حصونها و وفر الامن لسكانها و طور عمرانها و نظم اقتصادها و ربط علاقاتها مع حواضر المغرب و بلاد الأندلس، مما استقطب أنظار الرحالة و الجغرافيين المسلمين في فترة ق 4هـ/10م، فأفاضوا في وصف أوضاعها الاقتصادية المتحسنة و نذكر منهم:

**-ابن حوقل**

هو محمد بن حوقل البغدادي (أبو القاسم النصيبي)، الذي ظل يتجول في البلاد الإسلامية نحو ثلاثين سنة،منطلقا من بغداد سنة (331هـ/943م)، رغبة في الاستطلاع و الدراسة الجغرافية للشعوب و ممارسة
التجارة، فزار بلاد المغرب و اتصل بالفاطميين و اشتغل في التجسس لحسابهم في الأندلس، و في سياق ذلك وطأ الجزائر في حدود سنة 337هـ/948م، و أسهب في كتابه صورة الأرض بالإشارة إلى نشاطها التجاري وذكر أسواقها و نوه إلى ارتباطها بالمدن المغربية كالقيروان إضافة إلى الأندلس[16].

**-المقدسي**

هو شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، و هو من أبرز الجغرافيين في القرن 4هـ/10م، فقد طاف في الأقاليم الإسلامية لمدة طويلة و دوّن محصلة أوصافه بعد بلوغه 40 سنة، في

استقصاء البلدان و تحديد مسافاتها و رصد نشاطاتها الاقتصادية و حياتها الثقافية و الاجتماعية بفضل المعاينة و المشاهدة و جمع الأخبار من الساسة و القضاة و الفقهاء، متوخيا الدقة في الوصف و مبتعدا عن الكذب كما قال[17].

و قد تم تأليف كتابه المذكور بعد أن زار بلدان المغرب العربي (سنة375هـ/985م)، و خصها بوصف لائق مركزا على أهم الحواضر المشهورة، سواء الساحلية منها أو الداخلية، معتمدا على جهوده الخاصة في الوصف و مستنيرا بتجارب من سبقه مع الإضافة إليها كابن خرداذبة و ابن الفقيه مشيرا إلى نقائصهم و قلة معلوماتهم، و في هذا الصدد استهل وصف إقليم المغرب عموما بقوله: "هذا إقليم بهي، كبير سريّ،، كثير المدن و القرى، عجيب الخصائص و الرخاء، به ثغور جليلة و حصون كثيرة و رياض نزهة و به جزائر عدة... قد غابت في الزيتون مدنه، و بالتين و الكرمات أرضه، تجري خلالها الأنهار و تملأ غيطانها الأشجار..."[18] و لم يعدم الإشارة إلى مدينة الجزائر بني مزغنة محددا موقعها على ساحل البحر، يعبر منها إلى الأندلس، و أردفها بذكر إقليم متيجة منوها بمصادرها المائية و خصوبة أراضيها و كثرة بساتينها[19].

و المقدسي في كتابه المذكور، لم يتعرض إلا لأهم المدن في المغرب العربي كما يؤكد هذا بنفسه، لذا كانت متيجة و مدينة الجزائر في نظره من أهم الأقاليم و المدن، مؤكدا على مدى ارتباط تطور مدينة الجزائر و غيرها بالبحر، حيث أصبحت في ق 4هـ/10م ذات شهرة لكونها نقطة عبور إلى بلاد الأندلس[20].

**-أبو عبيد الله البكري**

و خلال القرن 5هـ/11م، تصدّى العلامة و الجغرافي الأندلسي أبو عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م) لوصف بلاد المغرب الإسلامي في كتابه المسالك والممالك، غير أن هذا المؤلف لم يدوّن في هذا الكتاب الكبير نتائج أسفاره و

رحلاته و إنما اعتمد على ما جمعه من الآثار العلمية التي خلفها ممن سبقوه[21] فيما يعرف بالجغرافية الوصفية، التي يعتمد أصحابها على الرواية و السماع عن التجار و العلماء و السفراء و الحجاج و ليس المعاينة كما هو الحال عند أصحاب الرحلات كابن حوقل، فقد اعتمد أساسا في تأليفه لكتاب المسالك و الممالك، على محمد بن يوسف الوراق القيرواني (ت363هـ/973م)، الذي وضع كتابا في مسالك إفريقية و ممالكها حيال إقامته بالأندلس في عصر الخلافة الأموية[22] كما نقل البكري أيضا عن معاصريه أمثال ابن حيان القرطبي، إلى جانب استفادته من الوثائق المدونة والبيانات الرسمية كما استقى معلوماته عن الرواة المغاربة الذين التقى بهم على غرار محمد بن سعيد الأزدي و هو من إفريقية و كذا من مؤمن بن يومر الهواري[23]، لذلك أظهر البكري في كتابه معرفة كبيرة بالأنشطة الاقتصادية والإدارية و الدبلوماسية و مزج فيه بين المعلومات الجغرافية و المعارف التاريخية، لذا كان معتمد المؤرخين و الجغرافيين و الرحالة في تاريخ وجغرافية بلاد المغرب كالإدريسي و ابن عذاري و ابن خلدون و ابن سعيد المغربي و ياقوت الحموي و الحميري[24].

و في هذا الصدد فقد خصص البكري في كتابه المسالك و الممالك حيزا معتبرا لوصف متيجة، فذكر أبرز مدنها مثل قزرونة (أو خزرونة) و هي البليدة اليوم، التي تنتصب على نهر كبير عليه الأرحاء و البساتين و لها مزارع و هي أكثر تلك النواحي كتانا و منها يحمل (أي يجهز و يصدر) و فيها عيون سائحة وطواحين ماء، ثم يعرج على مدينة جزائر بني مزغنة ، مشيرا إلى آثارها الرومانية القديمة، و ذاكرا لأسواقها و مسجدها الجامع، ثم يصف مرساها بأنه مأمون و له عين عذبة، يقصد إليه أصحاب السفن من إفريقية والأندلس و غيرها[25].

و من هذا الوصف للبكري، يتبدى لنا مدى ارتباط المدينة بالبحر، ووفرة المصادر المائية بمتيجة و بالتالي تطور النشاط الفلاحي بها مع الإشارة

إلى مختلف غلاتها الزراعية و موادها الأولية النباتية كالكتان الذي كان يصدر إلى مناطق أخرى، و على العموم استعاد إقليم متيجة بريقه و حقق التقدم التجاري و التفوق العسكري البحري بفضل علاقاته البحرية التي توسعت في عهد الدولة الحمادية (حكمت مدينة الجزائر و ضواحيها و منها متيجة) بين 405-547هـ/1014-1152م[26].

**-الشريف الإدريسي**

ثم تطورت علاقات متيجة بالبر و البحر في عهد الدولة الموحدية التي حكمت مدينة الجزائر منذ سنة (547هـ/1152م)، حيث زارها الإدريسي في هذه الفترة و هو جغرافي مغربي من مدينة سبتة، التي ولد بها سنة (493هـ/1099م)، و لما كبر طاف ببلدان المغرب و الأندلس و أوروبا و آسيا ثم استقر بجزيرة صقلية إلى أن وافته المنية سنة (562هـ/1166م)، في عهد ملكها روجر الثاني.

و هو صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، الذي أكمله (سنة 547هـ/1154م)[27]، تحدث فيه عن فحص متيجة و مدنه العامرة، فذكر عن مدينة الجزائر (بني مزغنة): "أنها تقع على ضفة البحر (ساحل البحر المتوسط) و شرب أهلها من عيون على البحر عذبة و من آبار، و هي عامرة آهلة و تجارتها مربحة و أسواقها قائمة و صناعتها نافقة (أي رائجة)..."، ثم يعرج على ذكر بسيطها السهلي المتمثل في متيجة بوصفه: "... و لها بادية كبيرة و جبال فيها قبائل من البربر، و زراعاتها من الحنطة و الشعير و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم و يتخذون النحل كثيرا، فلذلك العسل و السمن كثير في بلادهم، و ربما يتجهز بها إلى سائر البلاد و الأقطار المجاورة لهم و المتباعدة عنهم، و أهلها قبائل لهم حرمة مانعة[28].

و من وصف الإدريسي في ق 6هـ/12م، نستشف أن إقليم متيجة و مدنه قد بلغت شأنا كبيرا من الإزدهار بما يتزامن مع حكم الموحدين، و ملخص ذلك أن الإقليم يستمد مناعته من قوته العسكرية البحرية، بموانئه المأمونة

في مدينة الجزائر و مدينة تامدفوس التي تقع إلى شرق العاصمة بمسافة 18 ميلا (وهي كلمة بربرية ربما معناها تما تيفوست أي الجهة اليمنى) و غيرهما.

و مظاهر تقدمها كامنة في ازدهار اقتصادها الصناعي و الزراعي، بانتشار زراعة الحبوب بفضل وفرة مصادرها المائية الجارية و اتساع الزراعة المروية، و هو ما ساهم في كثرة أسواقها و رواج تجارتها الخارجية بتصدير منتوجاتها المحلية، فضلا عن اهتمام المنطقة بتربية الحيوانات و ما تدره عليها من مواد غذائية تسوق إلى المناطق المغربية المجاورة كالعسل و السمن، و لا ننسى أن انتعاش الوضع الاقتصادي قد أدى إلى استقرار السكان البربر و العرب و حصول التطور العمراني بإنشاء المدن الآهلة و القرى الفلاحية.

و خلال أواخر عهد الدولة الموحدية، أخذ إقليم متيجة و قلبه النابض مدينة الجزائر يرنو نحو الانحطاط و الضعف، و يوثق هذه الوضعية المتدهورة ، المؤرخ و الرحالة عبد الواحد المراكشي، الذي ولد بمراكش (سنة 581هـ/1185م)، و تعلم بها و بمدينة فاس ثم شد الرحال إلى الأندلس (سنة603هـ/1206م)، و منها خرج حاجا، فطاف ببلدان المغرب و المشرق، ثم توفي ببغداد (سنة 647هـ/1250م).

و في كتابه الموسوم بـ: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، و الذي دونه (سنة 621هـ/1224م) أشار إلى مدينة الجزائر و فحص متيجة بشكل مقتضب[29].

**العبدري**

و يوضح هذا التقهقر جيدا محمد بن علي العبدري، الذي ولد في بلنسية، و زار مدينة الجزائر و هو في طريقه إلى الحج (سنة 688هـ/1289م)، بعد أن غادر الأندلس متجها إلى بلاد المغرب، و خضع إقليم متيجة في هذه الفترة لحكم الدولة الحفصية.

و مما جاء في كتابه المعروف بـ: الرحلة المغربية، عن مدينة الجزائر ما يلي: "و هي مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر و يقف على جمالها خاطر

الخاطر، و قد حازت مزيتي البر و البحر، و فضيلتي السهل و الوعر، لها منظر معجب أنيق و سور معجز وثيق و أبواب محكمة العمل، يسرح الطرف فيها حتى يمل، و لكنها قد أقفرت من المعنى المطلوب، كما أقفر من أهله محلوب (اسم موضع بالجزيرة العربية)، فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، و لا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، و قد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة أو أديب يؤنس غربة، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق (البغلة الحاملة)، أو أحاول تحصيل بيض الأنوق (بيض العقاب)"[30].

و من هذا الوصف يتجلى لنا أن إقليم متيجة و أبرز مدينة فيه و هي الجزائر في نهاية القرن 7هـ/13م قد ألم بها الفتور من الناحية العلمية، فهجرها العلماء و أهل الصنائع و الحرف رغم جمال طبيعتها الأخاذ لزوارها و منهم العبدري، لكنها انحطت بفعل الاضطرابات السياسية التي سادت بها من جرّاء الصراع الزياني-الحفصي عليها، إذ كانت الجزائر ملحقة بتلمسان أحيانا و بتونس تارة و تتبع بجاية أخرى[31].

**-ابن بطوطة:**

و أفول مدينة الجزائر و إقليم متيجة عموما في هذه الفترة، جعل الحجاج و التجار المغاربة، لا يرغبون كثيرا في الإقامة فيها، فابن بطوطة (703-779هـ/1303-1377م) لم يعتن في رحلته المشهورة سنة (725هـ/1324م) بذكر مدينة الجزائر و أحوازها و فحوصها و هو في طريقه إلى الحجاز بغية الحج، مثلما اعتنى بوصف مدينة تونس، بل إنه لم يطأ مدينة الجزائر بالمرة، و ظل ماكثا لمدة بعيدا عنها، حسب وصفه: "فوصلنا مدينة الجزائر و أقمنا بخارجها أياما"[32].

و لم تتغير أوضاع متيجة و مدنها الرئيسية إلى التحسن و لو نسبيا، إلا بعد أن وفدت عليها الهجرات الأندلسية، إبان القرن 8هـ/14م و ما تلاه، حيث زارها خلال هذه الفترة الشيخ أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي القاضي (سنة 736هـ/1335م)، قادما إليها من بلاد الأندلس، في طريقه إلى

البقاع المقدسة، لأداء مناسك الحج، فمر ببلاد المغرب و وصف حالها بالإيجابي، متخذا من تصوير استقرار سكان مدينة الجزائر و تطور عمرانها و مساجدها كنموذج لذلك بقوله: "... و تفرقنا في سكك المدينة أجمعين، فرأيت محيا صبحا، و ترتيبا مليحا، و مسجدا عتيقا و بناء أنيقا، و أناسا قد سلكوا إلى الحسن و الإحسان طريقا..."[33].

**-الحميري**

و في نفس الفترة تقريبا و صف الجغرافي الإسلامي محمد بن عبد المنعم الحميري (ت749هـ/1348م)، فحص متيجة و مدينة الجزائر، دون القيام برحلة لكنه جاء بمعلومات وافية عنه ضمنها في معجمه الجغرافي المعروف بالروض المعطار نقلا عن سابقيه من الجغرافيين المسلمين و على رأسهم الإدريسي، فتحدث عن أنهارها و مزارعها و عيونها الجارية، مسهبا الوصف لمدينة الجزائر من حيث طبيعة سكانها البربر و العرب و تطورها العمراني و نشاطها الزراعي و تجارتها الرائجة و آثارها القديمة و مياهها العذبة و الدافقة، مما يوحي إلى انتعاش أحوالها الاقتصادية و الاجتماعية بفضل قدوم الجاليات الأندلسية إليها و لو ابتداء[34].

**-الحسن الوزان**

و في فترة مطلع القرن 10هـ/16م، بالتزامن مع أواخر الحكم الإسلامي في العصر الوسيط لمتيجة و مدنها، زارها الحسن بن محمد الوزان، المعروف عند المسيحيين بليون الإفريقي، و قبل التعرض لوصفه

يجدر بنا تقديم نبذة عن حياته و مسيرته و أخبار رحلته إلى المغرب العربي التي تمتد، فتلامس بداية الفترة الحديثة، ولد في غرناطة (سنة 895هـ/1489م) من نسب عربي، هاجر مع عائلته إلى مدينة فاس بعد أن استولى فرديناند الكاثوليكي على مدينة غرناطة سنة (898هـ/1492م)، و بها نشأ و تعلم و توظف، حيث عين سفيرا للدولة السعدية، و كان كثير التنقل بين الجزائر و المغرب.

و في سنة (921هـ/ 1515م) غادر بلاده في مهمة دبلوماسية إلى السلطان العثماني، و أثناء سفره إلى المشرق زار مدينة الجزائر و فحصها المتيجي، ثم زار مكة و لما قفل راجعا إلى المغرب أسره أحد القراصنة الصقليين سنة (924هـ/1518م)، و هو: "Pietro Bonadiglia" و سلمه إلى البابا Leon X (ليون العاشر)، الذي أرغمه على التمسح في سنة (927هـ /1520م)، و ظل بروما إلى أن أدركته الوفاة سنة (957هـ/1550م).

و انتهى من تأليف كتابه الموسوم بـ: "وصف إفريقيا" باللغة اللاتينية في إيطاليا، بتاريخ (933هـ/ 1526م) (روما)، و ترجم إلى عدة لغات منها الفرنسية و الانجليزية و مؤخرا العربية[35].

و فيما يلي ملخص وصفه عن متيجة و مدينة الجزائر: " و هي مدينة قديمة، بنتها قبيلة بني مزغنة... و هي كبيرة جدا، بهما نحو 4000 كانون (موقد) لها أسوار... في منتهى المناعة... و لها ديار جميلة، و أسواق منظمة، لكل حرفة موضعها الخاص، تكثر بها الأنزال و الحمامات... و يرى حول المدينة بساتين و أراضي مغروسة بأشجار الفواكه، و بالقرب من المدينة، و في جهتها الشرقية، يجري وادي أقيمت عليه مطاحين، و يشرب منه السكان، و يستعملون مياهه في حاجياتهم الأخرى (و يقصد به وادي الحراش اليوم)، وسهول المنطقة جميلة جدا، و بالخصوص ما يعرف منها بسهل متيجة، الذي يبلغ طوله 45 ميلا و عرضه 56 ميلا، يزرع فيه القمح الجيد الوفير..."[36].

**خاتمة**

نستخلص من خلال هذه الدراسة عدة نتائج معتبرة، يتصدرها بروز أهمية المصادر الجغرافية و كتب الرحلات في تزويد الباحثين بالمعلومات الوافرة و الهامة عن المظاهر الطبيعية و الحياة الاقتصادية و الاجتماعية للأقاليم و المدن و منها متيجة و حواضرها و هو ما لم تحتويه كتب التاريخ العام، و يمكن حصر أهم الجغرافيين و الرحالة الذين استوفوا التوصيف

الشامل لإقليم متيجة، في اليعقوبي و ابن حوقل و المقدسي و البكري و الإدريسي و العبدري.

و لعل مما يجدر التنويه به و استدراكه في هذه الخلاصة ما أورده اليعقوبي من معلومات ذات أهمية قصوى تتمثل فيما تشرفت به متيجة و حواضرها من احتضانها للأشراف الحسنيين الوافدين من المشرق و هم من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب –رضي الله عنهم- يقال لهم بنو محمد بن جعفر في متيجة و محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن في مليانة و مدينة الحضراء (عين الدفلى اليوم)، و هي مناطق زرع و عمارة و مياه و حصون، و ما هو ما أكده ابن حوقل في كتابه صورة الأرض، حيث قال عن مليانة، مدينة أزلية و لها أرحية على نهرها و لها حظ من نهر شلف، و عن مدينة الحضراء قال: مدينة على نهر و لها فواكه و لها ناحية خصبة، و فيها سوق جامع و حمام، و تحدث عن تنس التي عمرها الأندلسيون و هي من البحر على نحو ميلين و وصفها بوفرة المياه و الخصوبة و كثرة الفواكه، كما نجد المعلومات الثرية عن متيجة و أحوازها في كتاب المسالك و الممالك للبكري.

**الهوامش**

(1) شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة بريل، لدين، هولندا، 1906، ص2.

(2) الطيب بوسعد: الحياة الثقافية و العلمية في الإمارة الأغلبية و علاقاتها بالخلافة العباسية (184-296هـ/800-908م)، رسالة ماجستير، تحت إشراف الدكتور عبد العزيز فيلالي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001-2002، ص604-605.

(3) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ط1، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، 2008، ص30.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور و آخرون: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ط2، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1986، ص75.

(5) REGES BLACHERE : Géographes arabes du moyen âge, Paris, 1957, p219.

(6) اليعقوبي: كتاب البلدان، ط1، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1860، ص2.

(7) اليعقوبي: نفس المصدر، ص2-3.

(8) علي عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر –نشأتها و تطورها قبل 1830-، ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972، ص199، محددا تاريخ الزيارة سنة 208هـ/823م دون ذكر المصدر الذي اعتمد عليه.

(9) George Marçais : La berberie au IX siècle d'après El-Yaqûbi, extrait de la revue africaine 1 et 25, 1941, p41-42.

(10) زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص30-31.

(11) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ط1، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1885.

(12) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1988، صفحات 77-78-79.

(13) ابن خرداذبة: المسالك و الممالك، نشره قوجي، دط، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، و مؤسسة الخافجي، مصر، 1889، صفحات 82-83-90.

(14) اين خرداذبة: نفس المصدر، ص90-92.

(15) عبد الرحمان بن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب، تحقيق د.علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، بورسعيد، مصر، 1995، ص223 و ما بعدها.

(16) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ط1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص77-78، زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون، ص34-35، عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر، ص200-201.

(17) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1906، ص 1-2-3، محمد حسن، الرحالة المسلمون، ص36 و ما بعدها.

(18) المقدسي: نفس المصدر، ص 215-216.

(19) المقدسي: نفسه، ص228.

(20) عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر، ص201.

(21) زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص38.

(22) أبو عبيد الله البكري: المسالك و الممالك، تحقيق زينب الهكاري، ط1، مطبعة الرباط، المغرب، 2012، مقدمة التحقيق، ص24-25، الطيب بوسعد: الحياة الثقافية و العلمية في الإمارة الأغلبية، ص609.

(23) البكري: نفس المصدر، مقدمة التحقيق، ص 24-25.

(24) نفسه: مقدمة التحقيق، صفحات 23-24-25.

(25) نفسه: ص159.

(26) عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر، ص202.

(27) أبو عبد الله الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تحقيق اسماعيل العربي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، مقدمة التحقيق، ص6 و ما بعدها، عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر، ص202.

(28) الإدريسي: نفس المصدر، ص159.

(29) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق خليل عمران المنصور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ص253-256.

(30) محمد العبدري البلنسي: الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، دط، نشر كلية الآداب الجزائرية و مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، بدون تاريخ، ص23.

(31) عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر، ص204.

(32) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، ط، القاهرة، 1934، ص7، و يبدو أن مدينة الجزائر جاءت مجردة من ذكر قبيلة بني مزغنة التي انتسبت إليها لقرون، بعد أن تعربت كلية.

(33) ذكر هذا الوصف لسان الدين بن الخطيب في كتابه، الإحاطة في أخبار غرناطة، قال عنه: "حجّ و قيّد رحلته في سفر وصف فيه البلاد و من لقيه بفصول جلب أكثرها من كلام غيره، حليمي: المرجع السابق، ص 204-205.

(34) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق الدكتور إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص 163-523.

(35) عبد القادر حليمي: مدينة الجزائر، ص 205.

(36) الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية، د. محمد حجي و د.محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ج2، ص130-135.